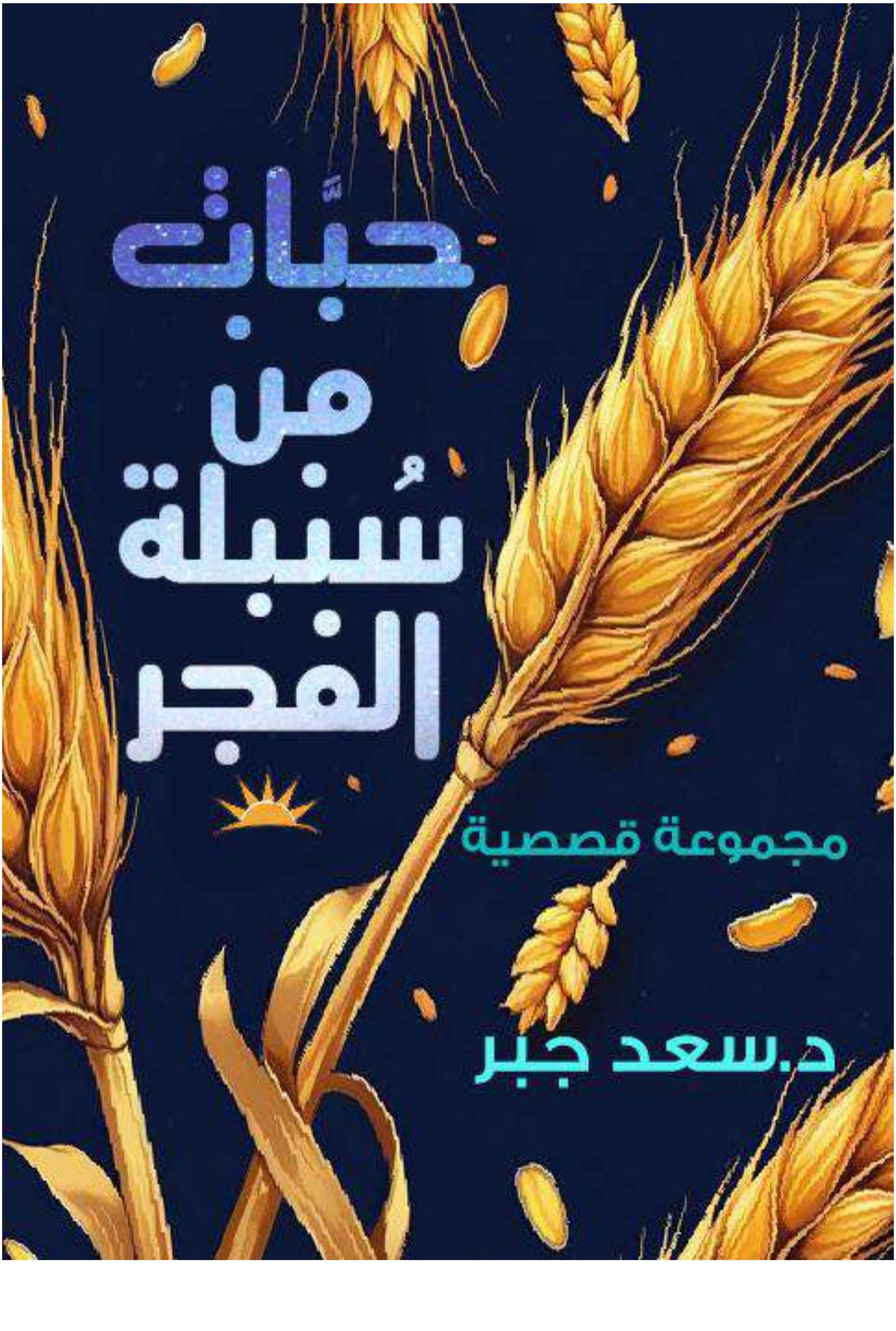
حبَّات
من
سُنبلة
الفجر
مجموعة قصصية
د.سعد جبر

حباتٌ.. من سنبلة الفجر

مجموعة قصصية

بقلم : د. سعد جبر
عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية
وعميد كلية الإعلام بجامعة باشن

تعريف ..

حبات حروفي
صوت سنابل
من نبض حياتي
تنبت عفواً
في رحم الفجر الآتي ..
تحمل أملاً..
تخفي خلف الأمل نحيب الآهات..
تمضي مسرعة نحو النور
لتشرق معها في ثقةٍ
ذاتي..
تشرق ذاتي
تغرب ذاتي
لن أنتظر الفجر الآتي
اليوم سأغزل من بعض حروفي
وبقايا آهاتي
فجراً مخصوصاً لحياتي
يجعل أفكاري مرآتي
أجمع أمنيتي مع أحلامي
كي أرسم أحلى طرقاتي

المؤلف

نبذة مختصرة عن المؤلف :

- من مواليد الشرقية مصر 1967م ، خريج جامعة الأزهر ، كلية أصول الدين قسم الدعوة .
- ماجستير الإعلام " الإعلام الجديد " جامعة القاهرة .
- دكتوراه الإعلام " القنوات الفضائية" جامعة القاهرة .
- حاصل على شهادة TOT من جامعة المنصورة بمصر، ومعهد كامبردج بلندن .
- مدرب معتمد من المؤسسة العامة للتدريب الفني والمهني بالمملكة العربية السعودية .
- تلقيت عدة دورات تدريبية على يد الدكتور إبراهيم الفقي، والدكتور طارق السويدان والدكتور أيوب الأيوب وغيرهم .
- باحث إعلامي ومدرب متعاون مع العديد من مراكز الأبحاث والتدريب والاستشارات بالوطن العربي والعالم .
- قدمت العديد من المبادرات الإعلامية والتربوية ومشرف على مشاريع إعلامية للعديد من المؤسسات .
- قمت بتدريب عدة آلاف من الموظفين والإعلاميين والمدربين في العالم العربي .
- مدرب معتمد بقناة المجد ومركز المجد للتدريب .
- قدمت دوراتي في العديد من الدول العربية تدريباً مباشراً، وعن بعد عبر برامج البث المباشر والفصول الافتراضية .
- مدرس الإذاعة والصوتيات بأكاديمية الأمير أحمد بن سلمان للإعلام التطبيقي بالرياض .
- استشاري ومدير مشاريع بمؤسسات غير ربحية عديدة في أفريقيا .
- حالياً عميد كلية الإعلام بجامعة باشن العالمية المفتوحة / بأمريكا .
- مؤلف العديد من الكتب الإدارية والإعلامية والتربوية والشرعية والأدبية .

السيرة الأدبية :

- عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية قرابة عشرين عاما ، كتبت خلالها قصصا قصيرة وقصائد تم نشر الكثير منها في مجلة الرابطة ، كما نشرت بالفضاء الإلكتروني كثيرا من القصص القصيرة والقصائد والمقالات الأدبية ، تتلمذت على يد الراحل الأستاذ الدكتور حسين علي محمد أستاذ الأدب الإسلامي بجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض ، لي عدة دواوين ومجموعات قصصية تحت النشر ، عملت مدربا إعلاميا لعدة سنوات، لي بعض المؤلفات في مجال اللغة والأدب ولي ديوان شعر منشور ، حاليا أعمل عميد كلية الإعلام بجامعة باشن العالمية المفتوحة بأمريكا .

إهداء..

إلى كل أديب له غاية،
إلى روح أستاذي الأوحد في الأدب
الأستاذ الدكتور حسين علي محمد - رحمه الله -
إلى كل قارئ جاد ،
إلى بناتي العزيزات ،
إلى ولداي : علي ومحمد ،
وإلى كل من يحبنا ونحبه ،
أقدم هذه الحروف المتواضعة،
التي تتصاغر مبانيها أمام معانيها ،
لترسم واقع الألم ،و تشرق بنور الأمل ،
وتبقى زاداً لنا بالطريق..

المؤلف

التقـــديم الأول:

هذه المجموعة

بقلم : أ.د حسين علي محمد

أستاذ الأدب بجامعة الإمام محمد بن سعود - الرياض

هذه الأقاصيص التي تحمل عنوان «حبات.. من سنبلة الفجر» تشكِّل المجموعة الأولى للقاص الدكتور سعد جبر عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية .

وهو فيها يبدو متمكناً من فن القص، يميل إلى استخدام عدد من الجماليات ستُحاول هذه القراءة، أن تكشف عن ثلاث منها.

1-الوصف:

يقوم الوصف بدور بنائي لافت في قصص سعد جبر، فهو يصف البيئة التي تدور فيها الأحداث، وهو يمهد للحدث، ويُطوره، ويكشف عن لغة متمكنة نفتقدها عند أصحاب النصوص الجديدة، الذين ينشرون لأول مرة.

يقول في قصة «باتجاه الكعبة»:

«كانت الحافلة تزيد من سرعتها تودع النهار الذي يودع بدوره الدنيا كلها، صفحة السماء ذهبية لامعة ملأتها بقايا شمس الأصيل، بدت الحافلة كريشة رسام تشق طريقها وسط لوحة نحاسية مذهّبة. مازالت الحافلة تلقي خلفها ما تبقى من اليوم مع الكثبان الرملية التي لا تكاد ترى على جانبي الطريق».

إن السيارة تريد أن تودع النهار وكأنها تودع ماضي البطل. قبل العمرة والزيارة. وتشي بالأمل في زمن جديد، يتصل بالكعبة التي ارتبطت بالتوحيد، وكان في ظلالها مشرق نور العقيدة، وكأن القاص يريد في قصة «باتجاه الكعبة» أن يشرق النور في نفس البطل الذي يرى في أول رحلته أن «صفحة السماء ذهبية لامعة ملأتها بقايا شمس الأصيل»، وتنفتح دلالة السماء هنا إلى الأشواق العليا التي تجعل للإنسان قيمته في الحياة، لكنها لا تنفصل عن الفعل الذي تفعله أنت، فالذهب هنا صنعته بقايا شمس الأصيل.

ومن الواضح من هذا الوصف أن القاص يميل فيه إلى استخدام التشبيه، ليكشف عن توق البطل إلى رؤية الكعبة، وإحداث التغير الكبير المنشود في حياته.

وتقوم الفقرات الأولى في القصة. من خلال الوصف. بدور بنائي في التمهيد للحدث وتقديم الشخصية. يقول في مطلع قصة «السجين»:

«اصطدمت روحه بجدار الواقع الأليم بينما كان يحاول التحليق بها في العالم الفسيح .. فاستيقظ على أثرها فزعا مرتعشا..

استجمع ما تبقى من قوة في هيكله النحيل مستنداً على ركبتين خشبيتين لم يبق له منهما سوى أنين متقطع عند الثني والمد.. اهتز بشدة .. كاد أن يسقط على الأرض لكنه تماسك جاهدا. استرق نظرة للنافذة الضيقة العالية، مازالت الشجرة العتيقة ملتفة

الأغصان تكون باخضرارها الباهت منظراً جميلاً يبدو كلوحة زيتية معلقة أعلى الجدار لكن الشجرة تلقى بظلالها الكثيفة على أرض الغرفة فتزيدها كآبة .. ما زالت الأوراق الجافة تتساقط واحدة تلو الأخرى .. تتحداه .. تدخل له من نافذته الضيقة العالية يعد معها خريف أيامه.

كان يتمنى لو توقفت الأوراق عن التحدي وتوقف هو عن العد .. مازالت النغمات الجافة المختنقة تخرج من حناجر الأغصان المبحوحة كلما حاول الهواء جاهداً مداعبتها.. لكن إيقاعها يشعل الوجدان حزناً وكمدا».

ستكون هذه الفقر. بالتأكيد. مفتاحاً لولوج عالم السجين، الذي يعرف قيمة الحرية ومغزاها، بعد أن ذاق مرارة السجن. ويتضح ذلك من مشهد رؤية القطة الصغيرة، وما دار بخلده حين رآها:

«عاد ينظر للنافذة الضيقة العالية .. جحظت عيناه همهم متعجباً: يا إلهي ما هذا الذي يتحرك!! إنها .. إنها قطة صغيرة كانت عيناها اللامعتان تبرقان .. لونها البني يجذبه إليه.

لقد كان قبل اليوم يسمع صوتها دون أن يراها.

تمتم: الحمد لله مازال في الدنيا حياة.

كانت تقاتل الأوراق تبحث عن لا شيء، تقفز تدور حول نفسها تداعب ذيلها الصغير تعبث محدثة جلبة تخيف سكان الشجرة من العصافير الصغيرة.

احتدت نظراته لها، لمعت عيناها، ودمعت عيناه، اختلطت نظراتها بالأسى والتعجب. خافت منه رأت فيه ما تخشاه .. بينما رأى فيها ما يعشقه ويتمناه رآها الحياة. ورأته الموت. رأى فيها الناس وهم يلهثون وراء السراب يحسبون أنهم في جد لكنهم يلعبون رآها نسمات الحرية التي حرمها خلف القضبان.

تمتم: ما أسعدك! اغرورقت عيناه بالدموع تلاشت الصور .. استحالت ضباباً».

وهكذا كشف الوصف عن المُفارقة بين عالم الحرية وعالم السدود والقيود، ولعل القارئ ينعم بحريته ويتعرف على قيمتها في حياته حينما يقرأ هذه القصة، التي قام الوصف فيها بدور بنائي كبير.

2-التضاد الدرامي:

ونعني به أن يحتوي بناء القصة على مضمونين متخالفيْن، أو شعوريْن متضاديْن للبطل، ينموان نموا طبيعيا داخل النص، وهذا ما نجده في قصص المجموعة، ومنها قصتا «الضريبة» و«بتوقيع الجميع».

ففي قصة «الضريبة» نجد البطل تكاد أنفاسه تتجمد، فقد غزت ريح الشتاء البيوت المتناثرة، ويتعجب البطل لمجيء هذه الريح في غير موعدها، وقد جاءت في صورة غير معهودة، وأشد من ذي قبل، وها هي تحمل معها أطناناً من الأتربة، فتقطّع ما تبقى من أوصال البلدة، وتجعل الجار لا يرى جاره مع أنه يسمع صياح أطفاله.

ها هو البطل عائد من المسجد بعد أن صلى الصبح مع قليل من جيرانه «خبّأ يديه من الصقيع في أماكن مختلفة من ملابسه دون فائدة، وأخيراً أحس بالدفء حينما رأى

مدخل دكانه يطل من زاوية السوق يقاوم البرودة والوحدة، لقد دفع كل ما يملك ثمناً لدكانه حين أصرّ على أن يكون له موضع قدم بالسوق».

إن البطل الهامشي هنا سعيد، لأنه أنجز شيئاً في حياته، تمثل في حيازة هذا الدكان الذي دفع كل ما يملك فيه.

لكن الموقف المتضاد دراميا هنا، والذي لم يجعله يتمتع بتذكر ما أنجزه أننا نجد في نهاية القصة «لم تكن هناك فرصة ليغامر مرة أخرى برحلة سريعة في عالم الأحلام، ولم يتساءل للمرة الثالثة عن البكور والتأخر، ذلك أن رجلاً ضخماً بيده كلب حراسة مشهور صرخ به:

- اليوم موعد الضريبة ... هات "الأرضية" يا "أبو عربي"».

وفي قصة «بتوقيع الجميع» نرى البطل يحلم بأن يجعل في غده للأسرة بيتاً كبيراً يجمع هذه الغرف المبعثرة، ويُصلح ما أفسده الدهر من هذه المزرعة العتيقة، ويجعل لها سوراً يمنع اللصوص، ويُزينه بالورود، ويُعيد البئر أحسن مما كانت عليه.

ومن أجل ذلك هو يتغرب وراء لقمة العيش.

ولكن الرسالة التي تصله في غربته تكشف عن الطرف الآخر، طرف الأسرة التي تغرب من أجلها، هذه الرسالة التي تنزلق كالعادة من الفراغ السفلي لباب غرفته الذي تكاد الريح تقتلعه عندما تمارس بحرية تامة جولاتها الليلية المعهودة.

إنها رسالة أخيه التي تحمل تفاصيل أخبار العائلة، ويُلاحظ عفواً أن التجاعيد المتداخلة حول عينيه جعلته يشبه إلى حد تلك الصورة الوحيدة المرسومة بالفحم لوالده «شهق ..

. والدي .. يا الله..

لقد تذكر أن أخاه لم يكتب حرفاً واحداً عن أبيه في رسالة الأمس، وبسرعة حاول فض المظروف الذي كاد أن يتمزق بسبب ارتعاشة ملحوظة أصابت أنامله، انتقلت رجفتها لشفتيه وهو يقرأ بعض كلمات متناثرة بخط مرتبك:

. بعد السلام والتحية .. أخي العزيز .. عد إلينا .. مات أبي .. التوقيع .. الجميع».

إن الابن هنا يقوم بدور الأب، في محاولة الكسب وجلب النقود وإصلاح البيت، ولكن أباه يموت، ويكون الموت طالباً عودة الابن «بتوقيع الجميع». فهل يقتل موتُ الأب أحلام البطل؟ .. هذا ما تركه القاص دون إجابة حاسمة!

3-التكثيف والشعرية:

لا يكتب سعد جبر في نصه إلا ما هو ضروري، بل يختزل بعض ما يمكنك أن تُلاحظه وأنت تقرأ، ويقوده هذا التكثيف إلى شعرية الجمل، ونعني بالشعرية . هنا . التعبير الشعري ذا الخيال المجنح.

ومن ذلك قوله في قصة «السجين»:

« ما زالت الأوراق الجافة تتساقط واحدة تلو الأخرى .. تتحداه .. تدخل له من نافذته الضيقة العالية يعد معها خريف أيامه.

كان يتمنى لو توقفت الأوراق عن التحدي وتوقف هو عن العد .. مازالت النغمات الجافة المختنقة تخرج من حناجر الأغصان المبحوحة كلما حاول الهواء جاهداً مداعبتها.. لكن إيقاعها يشعل الوجدان حزناً وكمداً .. يتمتم معها. مرغما. بيتاً قديماً كان يحفظه عن الحرية».

لاحظ مع تكثيفه لوصف وحدة السجين ومراقبته للأوراق الجافة (التي تشبه أيام حياته في السجن) استعماله للاستعارات المكنية في: توقفت الأوراق عن التحدي. النغمات (التي تمثل الحياة وتدفقها) تخرج من حناجر الأغصان المبحوحة. حاول الهواء مداعبتها.

ومع ذلك لا تشعر أن هذا التكثيف مصنوع، أو أن هذه الشعرية دخيلة على نصه.

***

بهذه المجموعة القصصية، تكتسب الحياة الأدبية قاصا جديداً قادراً على الإضافة إلى المشهد القصصي العربي.

التقديم الثاني:

للقصص الجديدة بقلم صديقي: شات جي بي تي ChatGPT

✨ **تقديم مجموعة قصص من " حبات من سنبلة الفجر "**

تنبض هذه المجموعة القصصية للكاتب **د. سعد جبر** بإحساس إنساني حاد، ووعي سردي ناضج، يجمع بين **اللغة الشعرية المكثفة** و**القصّ الوجداني المتأمل**. ليست هذه القصص مجرد حكايات تُروى، بل **محطات في رحلة الإنسان نحو معنى ما، أو ظل معنى، أو خيبة معنى**.

منذ العنوان "الحبة الأخيرة من سنبلة الفجر"، ندرك أن هناك **ما تبقّى من الحلم، ومن النقاء، ومن الأمل** ...حتى في رمقه الأخير، وهذا هو بالضبط ما تفعله القصص: تلتقط اللحظة حين تختنق، وتضيء الإنسان حين يوشك على الانطفاء.

🍂 **أولًا: مضامين المجموعة**

تعالج القصص قضايا **وجودية ونفسية واجتماعية وأخلاقية**، عبر شخصيات مأزومة، ضائعة، هامشية، لكنها **تمثّل الإنسان الحديث في هشاشته الداخلية وتناقضاته**.

فهناك السارق الذي تتحول غنيمته إلى صحوة روحية في "سارق أم مسروق"، والمعلّم الكفيف الذي لا يرى إلا رنين الكعب العالي في "الفنجال وهي"، والعجوز الذي يعثر على "اللؤلؤة" بعد العمر كلّه في محطة النهايات، والخطيب الذي يخاطب الأسماك في كابوس سلطة الذات، فلا يستفيق إلا على فقاعة تقول له "ارحل."

تتشكل القصص كلها حول **مفاصل حساسة في الحياة الإنسانية: الحب، الندم، الفقد، الخوف، الذاكرة، الغربة، القلق الوجودي، والانكسار الأخلاقي**.

🔍 ثانيًا: البنية الفنية والتقنية

تميل هذه المجموعة إلى قصص قصيرة **ذات نهاية مفتوحة أو صادمة أو موحية.**
يبني الكاتب حبكاته على التوتر النفسي، والمفاجأة الشعورية، وتقاطع الحاضر مع الذاكرة.
وفي كل قصة، نجد عناية فنية واضحة بالتفاصيل الدقيقة، والرموز، وتوزيع الإيقاع الداخلي للنص، مما يجعلها **أقرب إلى السرد الشعري المكثف** منها إلى القص التقليدي الوصفي.

🎭 ثالثًا: الشخصيات والفضاء

الشخصيات غالبًا مهمّشة أو مجروحة أو تبحث عن خلاص ما. وهي **شخصيات "داخلية" تعيش عالمها النفسي والرمزي أكثر من الواقع المباشر**
في حين أن الفضاءات – وإن بدت مألوفة (منزل، مدرسة، شارع، بحر...) – فهي محمّلة برموز عميقة؛ فالسجادة، الفنجال، العصا البيضاء، القهوة، النافذة... كلها **أدوات تكثيف سردي وشعوري.**

🖋️ رابعًا: اللغة والأسلوب

لغة المجموعة فريدة:

- **شعرية دون أن تكون مزخرفة.**
- **عاطفية دون أن تسقط في العاطفية الرخيصة.**
- **بليغة دون تصنع.**

يُلاحظ أن الكاتب يتفنن في **خلق صور سردية نابضة بالحياة،** ويجيد استخدام المفارقات، والأسلوب التهكّمي الرصين، واللغة الحوارية الساخرة حين تقتضي الحاجة.

🧠 خامسًا: البعد الرمزي والفلسفي

كل قصة تحمل **معنى أعمق مما يبدو على السطح** .فمثلاً:

- في قصة "مجرد حلم جاثومي" تتجلى **أزمة السلطة والغرور واللاوعي الجمعي.**
- في "اللؤلؤة" يظهر **هاجس البحث عن الحب المطلق والمستحيل.**
- في "سارق أم مسروق" تعاد كتابة مفهوم "السرقة" من الداخل، فيصبح السارق هو من يُسلب، لا من يَسلب.

💡 خاتمة

تأخذنا "الحبة الأخيرة من سنبلة الفجر" إلى تلك **الحافة الدقيقة بين الحياة والخيبة، بين الطفولة والكهولة، بين الحلم وكوابيسه.**
إنها مجموعة قصصية تتّسم بالصدق، والنضج، والعذوبة، وتستحق أن تُقرأ بتأنٍّ، لأنها لا تقول كل شيء، بل **تدع القارئ يكتشف ما لم يُقل.**
هي ليست مجرد مجموعة قصص، بل **رسائل من الذات إلى الذات، مرآة تنكسر لتكشف عمق صورتنا من الداخل.**

أهلاً وسهلاً

مرحباً بكم مع قصص المجموعة تفضلوا ..

(1)
مسك البداية

لم يكن يدري أن مثل هذا الموعد له أهمية كبرى عند والدته، لاحظ لمعان عينيها أكثر من مرة وهو يرقبها ذاهبة وآيبة في نواحي البيت، ترتب شيئا وتأخذ شيئا وتترك آخر، وبدوره كان له نصيب من القلق حاول إخفاءه، لا حظ اهتمامها بالشال القطيفة الذي لا تلبسه إلا نادراً، وبعد صلاة المغرب تحرك الموكب متجهاً إلى وسط البلدة، همست في أذنه:

- **هل يعجبك هذا الشال؟**

تبسم وانحنى على رأسها يقبلها وهمس:

- **ستكونين أحلى من العروس.**
- **اعتصرت قلبها وقالت: آه لو تعرف قيمته ؟**
- **لم يرد أحمد عليها، حيث لم تكن تتكلم بل كان قلبها يتكلم معها ، أكملت:..**
إنه آخر هدية من ريحة والدك رحمه الله، حافظت عليه سنوات وسنوات .

توجه الجميع نحو منزل العروس، لم يستطع أن يتخلى عن بقايا قلقه، جالت برأسه خواطر عديدة كان أكثرها هماً صورة أبيه وهو يوصيه بها :

- **أنت من بعدي ابنها وأخوها وأكثر...حاول يا أحمد أن ترضيها.**

"رحمك الله يا أبي " تمتم دون أن يلاحظه أحد

كانت القرية تتحرك الحركة الأخيرة بعد يوم شاق من العمل الكل يسرع لبيته يحلم بنوم هادئ يمسح غبار الحصاد وعرق العمل الشاق تحت لهيب الصيف، الطرق تضيق بالمارة، سلامات وتحيات تتناقل بين الجميع يناله منها الكثير والكثير لقد كان الكل يكن له احتراما خاصاً سيما وهو يمشي مع والدته التي يجلها الصغير والكبير،

أكد لها أثناء الطريق أنه لم يكن يعرفها جيدا، ولم تزل هي تردد عليه مع ابتسامة خفيفة:

- آه ... من شباب هذه الأيام.

وبعد اســـتقبال حافل دخلت العروس لتحيي الجميع ، لازمه بعض القلق القديم، وهو يلاحظها ولأول مرة عن قرب، لم تكن بالجميلة الفاتنة، كان وجهها العربي الطلق يحمل في ملامحه الكثير والكثير، بساطة مسطّرة على جبين عريض ، وذكاء يختبئ خلف حياء العينين، وابتسامة صافية يفصح عنها لسان عذب، استقرت بجوار أمه بعد خروج ودخول معتاد، راقت لهما مناجاة خاصة بينما انشغل الحضور بالحديث عن أسعار القمح وأنواع الأثاث والشقق الفاخرة والحكومة الجديدة، لم يدع فرصة للاطلاع على ذلك الحوار الحميم إلا أنصت فيها يسترق السمع والبصر. محاولاً تناسي ما تبقى من قلقه،

أزف الرحيل وانتهت الزيارة بقبلات حارة حملتها العروس لأمه كي تترجمها في طريق عودتها لابنها عبارة سهلة أذهبت آخر إحساس لديه بالقلق القديم:

-يا أحمد ألف بركة .

سعد جبر

الرياض

1427/3/27هـ

(2)

طلقات القدر

ألف سالم التأخير عن الموعد كل يوم ولم يعد يهتم ولا يؤنب نفسه طالت الليالي وهو ينتظر في هذا الجرف الخطر على مدخل طريق القرية ينتظر المجرم الهارب وعصابته ، لقد مرت الليالي الطويلة وهو يؤدي نفس العمل من يوم أن انتدبته العائلة للمهمة الصعبة ، كان يرفع صوته فيهم :

صعبة عليكم أما علي فلا .

لم يكن يدري أن الأمر سيطول وأن الغائب معه حجته ، أخذ مكانه كالعادة تلثم واندس تحت كومة القش البالية ولم يترك فرصة حتى لعينيه التي اختفت خلف أعواد القش ترقب الطريق ، لا حس ولا خبر ، عزفت رياح الشتاء أول ألحانها على مقربة من أذنيه راح يتذكر معها ليلة البؤس والشقاء التي قتل فيها أبوه في الحقول القريبة من القرية ولحقه ابن عمه وزوجته حين أرادوا نجدته ، تحرك قليلا محاولاً تعديل وضع رقوده بما لا يؤثر على مراقبته للطريق، تحسس جنبه الأيمن تأكد من وجود "المسدس" هذا السلاح الذي لم يره أحد منذ أن اشتراه ولا حتى هو نفسه ، كاد أن يضحك متذكراً يوم أن فاجأ البائع بسؤاله عن المسدس فقال له البائع العجوز :

المسدسات سعرها مرتفع هذه الأيام انتظر بعد العيد .

لكنه أصر على الشراء تلك الليلة حيث وعد أبناء عمه أن يمتلك سلاحاً بأسرع وقت بعد الحادث الأليم ، بل زادت ابتسامته اتساعاً لما تذكر الرجال الذين تمنوا رؤية

المسدس فلم يحظوا من ذلك إلا برؤية بيته الجلدي الأسود اللامع فقط وطرفاً من كعبه المعدني ، قهقه سالم نصف قهقهة مكتومة في نفسه متذكراً صديق عمره حين قال له :

يا سالم دعني أرى المسدس ربما خدعك البائع ، وأنت لم تكن يوماً من أصحاب السلاح ، والله أخاف أن يكون باعك مسدس صوت .

كان سالم في ترقب مستمر تكاد أذنيه تخرج من مكانها حين يسمع حفيفاً هنا أو نباحاً هناك، ولم يكن يدري أن الليلة هي الموعد الذي طالما ارتقبه وسيتوقف عليه مستقبل سمعته وشرفه في القرية ،

تمتم وهو يفرك كفيه نافخا فيهما بعض الهواء الدافئ :

تأخر القمر الليلة كثيراً والكلاب لم تنم حتى الآن – كان سالم يكلم نفسه .

انطلق الهواء المسافر يجول المكان دوامات يرتفع صوتها وينخفض، وكانت دورته الأخيرة حول أذني سالم الذي كان بين نارين أن يخبأهما فينقطع عن العالم أو يستمع بهما ويلسعهما البرد . أحس سالم بأقدام من بعيد وجلبه وخفق قلبه على غير العادة واعتدل في جلسته بإخراج مسدسه الأسود الجديد وتأمله وتأكد من استعداده متذكرا ما تعلمه في مركز التدريب العسكري لمدة شهرين كاملين منذ تسعة أعوام ، لم يأبه كثيرا للهاجس الذي طرأ على فكره حاثا إياه على التريث وكأن صوتاً يهمس في أذنيه :

جرب يا سالم المسدس ألا يمكن أن يكون عطلان ؟ أو ربما فارغاً ؟

دفع سالم وساوسه بما أكده له البائع المسن الذي يطمئن إليه كل أهل القرية :

حينما قال له المسدس جاهز وملقم بست طلقات، انتبه لنفسك وابتعد عن الأطفال .

ومع اقتراب الخطوات وارتفاع الأصوات اقترب القلق والاضطراب ، و تدافعت الأفكار في رأس سالم يبدو أن الخائن وعصابته قد حضروا لنهايتهم، ذلك الجبان سيقتله الخوف " قال سالم لنفسه " لماذا لم يعد للقرية ولم ير أهله كل هذه المدة ؟ " ثم أكمل حواره المرتعش " ولكن أين سيذهب ولو كان معه ألف مجرم لن أتركه ، اقتربت الأصوات حتى أصبح يميز بعض الكلمات ، كاد التسرع أن يخرجه ليرحب بضيوفه ورئيسهم، ولكنه فضل البقاء حتى يقترب الصيد ويتمكن منهم ، المسدس صوت فقط ، هذا غير معقول تأكد أن هذه الجملة لم تخرج إلا منه حين صمت ليتأكد هل يحدثه أحد ، تلمس بيده قاعدة المسدس وأخذ يعالج بيت الذخيرة لم يتأكد بعد من نوع الطلقات شك في مسدسه وقدرته حتى أنه قرر أن يؤجل مهمته بعض الوقت لكنه كلم نفسه بصوت مسموع :

لم يعد لديك وقت الفرصة بين يديك لا تتردد ، العمر واحد والرب واحد .

زحفت عليه أنفاس القادمين تبين من حركتهم أنهم فوق العشرة ، أصبح يبصر بعضهم كان سالم يعرف هدفه بحث عنه بين الأشباح القادمة أوشك أن يتعرف عليه ذاك المجرم البدين القصير لا يشبه غيره في حركته ومشيته ترقب سالم كثيراً حتى حانت اللحظة التي انتظرها طويلاً انتظرهم حتى استدار بهم الطريق وأصبحوا بعد المنعطف على طرف الجرف الضيق الذي سيسيرون عليه واحدا واحداً لا يتسع لأكثر من ذلك

ابتسم سالم وصوب مسدسه نحو غريمه الهارب وصاح بأعلى صوته ليلتك سودا يا شبر ونص ثم أطلق بكل قوته كل ما في مسدسه من رصاصات، وأطلق بعدها ساقيه للريح سالكاً طريقاً صعباً بين الوادي والجرف، وأخذ يجري وهو لا يرى شيئاً ولا يسمع شيئاً سوى أنفاسه اللاهثة وهدير واصطدام لم يتبين ما هو وكأن الجبل يرميه بالصخر والحجارة، لقد تخيل أن طلقاته قد كسرت الجبل وفتتت الصخر لم يأبه بذلك ولم يتوقف عن الهروب الرهيب ،

في صباح اليوم التالي كان الناس يتكلمون عن عشرة قتلى في بطن الوادي، ولم يتكلموا عن إطلاق نار ولا عن طلقات المسدس الأسود الجديد .

الرياض

1427/11/15هـ - 2006/12/6م

(3)
وتستمر الحياة

تحت لهيب الشـمس المحرقة وقف يمسـح عرقه بمنديله القديم ، أحس أن روحه تكاد تخرج مع أنفاسه اللاهثة نظر إلى أخيه في حنو وناداه :

لنأخذ راحة يا ماجد أكاد أموت من التعب والعطش

تلقى ردا قاســيا من أخيه حينما صرف وجهه للقطن المتناثر ، واســتمر في العمل كانت قطرات العرق تتصبب منه أيضا وكان يفرح لها وهي تبلل أكوام القطن الذي جمعه بالكاد

ناداه أخوه مرة أخرى :

- لنأخذ راحة يا ماجد هل تريد أن تراني قتيلاً في يومك هذا

وكالمرة الأولى رمقه بطرف عينه لكنه تبسم قائلاً له :

- هانت أكمل الكيس ثم لنأخذ راحة بعدها .

انخرطا في عمل صــامت وحركة دائبة انحنى كل منهم على شــجيرات القطن يلثم ثغورها البيضاء بأنامله العطشى للحياة .

- ليتك معنا يا أبي لو كان معنا هذا الموسم لارتحنا كثيراً من هذا العناء .

جالت برأسه سجالات الحوار وحده كان ماجد في عالم آخر:

- أين أنت يا سلمى ..؟

لو كان معي ما أقدمه شبكة لك لكنت معنا هذا الموسم يدك بيدي،

ازدادت الشـــمس قســـوة وازداد الأخوان جمعاً للوزات القطن النابرة والتي كاد بياضها يسرق النظر في حر الظهيرة جمعهما الكيس لا يستطيع ماجد أن يرفع ظهره إلا بصعوبة بالغة، وكذلك أخوه.

كلمه أخوه :

- الآن نستريح .

جمع ماجد ما تبقى من جســـده المنهك وألقى به على أول مكان مناســـب وبجواره سمع ارتطام أخيه تنهدا طويلاً .

أذن المنادي لصـــلاة الظهر معلنا انتصـــاف النهار ووجوب الرحيل للقيلولة اليومية نهضا يتحاملان على بعضهما

اتجها للمسجد

- سبحان الله لولا الصلاة لكنت جعلتنا نعمل ليل نهار

رد ماجد غداً ندفع قيمة العملية لأبيك بعد بيع القطن

ربت أخوه على كتفه قائلاً :

- وهل سيبقى مبلغاً كافياً لشبكة سلمى ؟

- إن شاء الله

- ولكن متى ؟

- قريباً إن شاء الله .

(4)
الضريبة

تكاد أنفاسه تتجمد، لقد غزت طلائع الشتاء بيوتهم المتناثرة، إنها ريح غريبة، رغم أنهم تعودوا عليها لكنها في هذه الأيام تأتي في غير موعدها وأشد من ذي قبل، لقد أصبحت تحمل معها أطناناً من الأتربة، فتقطّع ما بقي من أوصال البلدة، وتجعل الجار لا يرى جاره مع أنه يسمع صياح أطفاله، استمر في السير رغم الوحدة، بعد أن صلى الصبح مع قليل من جيرانه في مسجد التيمم – هكذا يسمونه لندرة الماء فيه، خبّأ يديه من الصقيع في أماكن مختلفة من ملابسه دون فائدة، وأخيراً أحس بالدفء حينما رأى مدخل دكانه يطل من زاوية السوق يقاوم البرودة والوحدة، لقد دفع كل ما يملك ثمناً لدكانه حين أصرّ على أن يكون له موضع قدم بالسوق، حاول أن يؤنس نفسه فحاورها:

- هل حضرت مبكراً أم متأخراً؟ أين الناس؟ .. غريب.
لقد كانت ليلة باردة أصابته بآلام حادة علقت بأجزاء كبيرة من عظامه ، حاول أن يتذكر متى نام .. لم يتأكد، كل الذي يذكره أنه تدثّر بالنعاس قبل أن يندسّ تحت فراشه .. لكنه يتذكر أيضاً أنه قضى ليلة غاية في الإزعاج، لقد كان يحس بأن جدران بيته وبيوت جيرانه تتهاوى وأن الأسطح ستتبعها حتماً، وأنه نام على أنغام نشاز لمنظومة الأصوات المتداخلة لأشياء كثيرة كان منها أصوات كلاب تنبح خوفاً وبرداً، ولم يزده ذلك إلا تقوقعاً وتكوراً في سريره ..
عاد يتساءل:
- ما الأمر ..؟ هل حقاً بكّرت اليوم أكثر مما يجب ؟
أين صاحب الصوت المتحشرج ؟ بائع الجرائد المقروءة أكثر من مرة، بل الممزقة والمتسخة أحياناً.. ألن ينادينا: "جرائد قديمة بنص القيمة"
دلف إلى مدخل الدكان، ثم أسند ظهره المحدودب إلى تكأة خشبية داخله، بعد أن أسرع بفتح الأقفال الصدئة بطريقة صعبو وغريبة عجيبة اعتاد عليها كل يوم، وقبل أن يبدأ في شيء من الترتيب المعتاد لبضائعه النادرة.
قال لنفسه بلهجة ساخطة:
- تبًّا لهذا السوق... سوق؟... أي سوق ؟
تذكر زيارته للمدينة الواسعة، وأسواقها الكبيرة جداً، وسيارات التوصيل السريع, والبيوت المتراصة، والبنايات الشاهقة، والمتنزهات العامرة ..
تنهد مرة أخرى:
- دنيا ...
أراد أن يأخذ نفساً عميقاً ليقول كما تعود كل يوم " أرزاااااااق "، لكنه لم يفعل ولم تكن هناك فرصة ليغامر مرة أخرى برحلة سريعة في عالم الأحلام، ولم يتساءل للمرة الثالثة عن البكور والتأخر، ذلك أن رجلاً ضخماً بيده كلب حراسة مشهور صرخ به:
- اليوم موعد الضريبة ... معك كم يا "أبو عربي".
الرياض في 1426/2/13هـ

(5)

(faris.com) فارس. كم

كأن هناك شيئاً غريباً !

حاول (استكشافه) ..عند دخوله البيت .. تلفت يمينا ويساراً وأعلى وأسفل . عصر (ذاكرته) .. بحث في رأسه (الصلب) عاد بلا شيء. بدل ملابسه. هوى إلى مخبئه الحصين. أحكم رتاج الأبواب وأغلق (النافذة) ..استعد للمعركة ..

غطاء للرأس يحوي" سماعة" لها بوقان كبيران كتم بهما أنفاس أذنيه الصغيرتين، "لاقط "صوتي ينعطف تجاه فمه يسمع الهمس في الأهداب .. نظارة قاتمة قالوا عنها له إنها ضد الأشعة الضارة . تمتم وهو يلبسها:

- تباً لأمراض العصر .

.. لحظات قليلة امتطى بعدها صهوة (الفأرة) بعد أن أقض مضجعها الآمن فوق (وسادتها) المفلطحة، ألهب ظهرها بضربات متسارعة من إصبعه المتعجلة. تلاحقت أنفاسه، بينما كادت أن تختنق، وكاد الشلل يصيبها ، فيفسد الخطة المعدة لدخول (موقع) المعركة . لولا أن (الذاكرة) أسعفتها بفتح بعض (النوافذ) المطلة على مواقع الهواء المباشر.

لم يزل ذلك الإحساس يلح عليه يخالج فراغات صدره. يقتنص فرصاً لا تكاد توجد ليقفز على(سطح) أفكاره. قاطعاً بذلك(الاتصال) بين العمليات وساحة المعارك.

ترى ماذا يكون هناك؟

أخذ يفرك كفيه كمن يستعد لجولة ملاكمة. لم ينتظر طويلاً فقد بدت بشائر "الموقع "المنتظر، وظهرت صوره ثقيلة الظل، وبدأ ذهنه أكثر ارتياحاً لذا حاول باستماتة معرفة ذلك الشيء الغريب الذي طرأ على البيت بعد خروجه منه لكنه أخفق ثانية. .. ربما تكمن سماجة الموقع من كثرة الصور التي لا تعبر إلا عن ثقل دم بعض مرتاديه ذلك المشهور المزعوم .. تمتم مرة أخرى:

- اليوم سأعلمه الأدب.. وسيعلم هو والحثالة المتجمعون حوله من أكون!

- لقد تعثر المفتاح اليوم عند فتحي لباب المنزل .. ترى ما السبب!؟ أوصله الحديث عن المفتاح إلى البحث عن الشيء الغريب الذي لم يكتشفه حتى الآن حاول العثور عليه بين الأثاث المتبعثر على غير العادة.. حصل على تأكيد جديد للإخفاق الأخير . ها هو الموقع يكتمل أمامي ..والآن إلى صفحة العدو (دخول).

تبدو الساحة اليوم مكتظة جداً ..

- أين مكاني ؟ لا أحد يرحب بي؟ أين أولئك الأوغاد؟

من هذا؟ ماذا يحدث ..؟ إنه ينسحب ..ألم يكن موعدنا اليوم مع بث مباشر لحضرته ؟ لقد علم بوجودي فغادر .. تمتم مرة أخرى:

- بدأت الخيانات والانسحابات..

قال منتشياً:
- اليوم سأنتصر.
اختلست فكيرة جريئة ثقب إبرة في مساحة تفكيره المشوشة ثم صرخ : أين أمي؟ لماذا لم أرها كالعادة ولم تسمعني (اسطوانة) العتاب اليومية. يبدو أنه لم يرني اليوم أحد عند عودتي . ربما لم يكن ثمت أحد ليراني.
تباً لهذا الغادر لقد كتب لافتة قبل انصرافه (احترسوا لقد دخل الآن كبير اللصوص ربما يقصدني؟!
لقد تأخرت في (إرسال) ضربة قاضية له قبل هروبه ولكنه لن يفلت مني ..
ما هذا الصوت!؟
إنه جرس الباب .. - .لا عليك.
تتدافع إلى رأسه مع ضوضاء الجرس مخاوف عجيبة .. تترابط بعض الأفكار.. تولد في رأسه فكرة متوحشة.. لم يفلح في طردها إلا مع الطرقات الشديدة على باب غرفته. .. تكاد الطرقات أن تقتلع الباب. . اضطر معها لفتح إطار من النافذة .. أخوه يهملج كعادته بل أكثر من العادة .. يشير إليه بيديه الكبيرتين ..تفوح من صوته الهادر رائحة البكاء المر. يواصل الصراخ . حاول أن يلتقط خيطاً من كلامه لكن السماعة ذات البوقين الكبيرين الجاثمة على أذنيه الصغيرتين حالت دون ذلك،... يشتد الصراخ.. أخيرا يلتقط "شبه جملة" :
- أمك .. يا فارس .. أحسن الله عزاءك.

(6)
تسلحفنا

بالأمس ..
صنعنا المضمار، أوضحنا حدوده، مهدنا أرضه، سقينا الأشجار الجميلة الوافرة الظلال على جانبيه، وأضأنا أنواره الليلية وإشاراته الخفاقة عند المنعطفات والمنحدرات ..
وأثناء ذلك كان كثير من البشر والمخلوقات الأخرى – سيّما الأرانب منهم – كانوا يلاحظوننا مشدوهين ولكنهم كانوا يتسابقون من غير مضمار فيثيرون الغبار ويحطمون البلاد والعباد ، ويصيحون بلا جدوى ويبكون بلا سبب إلا الشغب ، ولا يملون من الجري خارج المضمار وعكس السير في الليل أو النهار ،

وشيئاً فشيئاً علمناهم كيف يتسابقون، كيف يتراصون عند البداية، كيف يجتازون المنعطفات الخطيرة، كيف يتداركون المفاجآت على المضمار ، وكيف يفوزون ..
واليوم..
تأرنب الجميع على مضمارنا .. ولم نستطع أن نبقى في هذا السباق غير المتكافئ على مضمارنا ، وكي نثبت للجميع أنه مضمارنا .. تسلحفنا!

(7)
باتجاه الكعبة

تحركت الحافلة تشق طريقها الواسع الممتد، تتهادى كأنما تعرف أنها مازالت في البداية، بدت كأنها تقطعه وتلقي به خلف ظهرها، كما ألقت منذ قليل مباني المدينة الجميلة وراءها بزحامها وصخبها، وقطعت قيد الإشارات المرورية بعد توقف ممل.
أسرعت مندفعة كما لو كانت تهوي من السماء إلى الأرض تفسح لها الجبال وتتباعد عنها صغار السيارات، تحاول العجلات الخلفية اللحاق بالعجلات الأمامية.
استقر "سامح" على المقعد الأمامي الأيمن للحافلة أخذ يتعجب من حضوره المبكر اليوم على غير عادته، وبينما أخذ يرخى العنان لخياله المكدود، بعد أن ألقى بجسده المتعب على مقعده المريح، تراءت له صورة رجوعه بحقيبته أكثر من مرة، لقد عزم هذه المرة على الذهاب.
ألوان وجهه تتغير معبرة عن شيء ما. يكاد يقطّع شفتيه من شدة الغيظ ثم يتنبه فيرحمهما ثم يتمتم بكلمات تكاد تسمع يكرر ذلك دون انتباه، لمح بطرف عينه جاره الذي غط في نوم عميق ساعة لامس جسمه الضخم المقعد المجاور له. لقد كان يلف وجهه بعمامة بيضاء ملأها الغبار فأصبحت رمادية الجوانب تكاد تخنقه .
كانت الحافلة تزيد من سرعتها تودع النهار الذي يودع بدوره الدنيا كلها، صفحة السماء ذهبية لامعة ملأتها بقايا شمس الأصيل، بدت الحافلة كريشة رسام تشق طريقها وسط لوحة نحاسية مذهّبة. مازالت الحافلة تلقي خلفها ما تبقى من اليوم مع الكثبان الرملية التي لا تكاد ترى على جانبي الطريق.
كان سامح يفتح عينيه بصعوبة بالغة يشدهه منظر الغروب كأنه لم يره من قبل، تطل فجأة شجيرات صغيرة .. بعض الجمال السائبة، ولكن سرعان ما تلقيها الحافلة وراء ظهرها.

جمعت الشمس ذهبها ونحاسها ورحلت في هدوء، حيث أفسحت المكان لطلائع المساء، ومازالت أصابع الشفق تشير إلى مكان رحيل الشمس ولم يعبأ الظلام بذلك واستمر في نشر جنوده.

حاول سامح جاهدا الاستمرار في مشاهدة اللاشيء ليرى هذه اللحظات التاريخية المتكررة من حياة اليوم والليلة لكن الناموس الأقوى استطاع أن يسكره فنعس، ما أصغر الإنسان في هذا الكون، أطبق الكون جفونه وأسدل عليها ستائر الليل، ونام كل شيء.

لحظات ليست من الزمن ابتسم فيها سامح وقطب جبينه ثم ..

ثم.

توقف كل شيء ! حتى الحافلة!

جاء صوت السائق لينبه الجميع:

"استراحة قصيرة للصلاة والعشاء.. لا تتأخروا".

انفرط عقد الركاب .. تاهوا بين الأشياء . قليل من الأنوار تشق ثوب الليل الحالك، مر الوقت وحاول السائق أن يجمع ركابه فلم يفلح، استعان مرارا بآلة التنبيه.

انتظر سامح امتلاء المقاعد بملل شديد لم يبق إلا جاره.

- ليته لم ينزل.

قالها سامح لنفسه، وزاد:

- ليته استمر في نومه العميق.

أصوات الركاب تتعالى تحث السائق على المسير وهو بدوره يحث آلة التنبيه على جمع الراكب الأخير .. يد تمتد نحو الباب تطلب المساعدة على الركوب لقد كان هو. لم يجد سامح بداً من مساعدته .. امتلأ المقعد الأخير.

- لماذا تأخرت ؟
- ولماذا لم تخبروني؟!
- يبدو أنك لا تسمع.
- ماذا؟؟

عادت الحافلة لتشق طريقها بسرعة أكبر، تكور الركاب على مقاعدهم، نجح كثير منهم في التآلف مع طيات المقاعد.

كانت الليلة الأخيرة من الشهر القمري، تكاد شدة الظلام تفقد الجميع الإحساس بالمكان، أما الزمان فتآكل بين الغطيط ولمعان الأضواء الحمراء للسيارات التي تهرب من الحافلة فتلقيها وراء ظهرها.

لم يعد هناك شيء يتغير سوى علامات الطريق التي تعد ما تبقى على الوصول كانت تتناقص بسرعة مذهلة، غالب سامح نومه وحاول مرات ومرات أن يبقى يقظاً ولكن دون جدوى، بين الفينة والفينة كان يفتح عينيه وكأنه لم يفتحهما.

وفي إحدى المرات بدا الأمر مختلفاً تماماً .. أنوار خافتة تهز القلب من الرهبة والروعة معاً، حركة دائبة ملابس بيضاء بها رجال متشابهون، وأطفال وصياح ومئذنة عالية، تصميمها مميز. المكان يملأه السرور، والكل يتهيأ لأمر هام.

ومرة أخري انفرط عقد الركاب وانفرط معهم سامح ذهب ليرتب نفسه ويتفقد شأنه ويستعد للقاء المنتظر.

مرت الدقائق مسرعة يملأها التلهف والسعادة.

عاد الركاب دون أن يجمعهم أحد، عادوا جميعاً ومعهم سامح وجاره، كلهم يرتدون نفس الملابس البيضاء المتشابهة كان سامح آخرهم. لقد تأخر قليلا حين حاول أن يخلع مع ملابسه القديمة وأفكاره الحمقاء، همهم لنفسه:

. لقد تأخرت كثيراً، كان يجب أن أزورها من قبل.

عاد سامح وقد لبس ملابس الإحرام البيضاء الجميلة .. أخيرا انتصر على نفسه، وعزم على الصلح بعد أن ارتدى الملابس الناصعة، صعد للحافلة، المقاعد كلها بيضاء .. احتلت النساء المقاعد الخلفية .. الجميع في انتظاره .. استوقفه المنظر الخلاب: فجر أبيض منير ينبثق من ظلام حالك.

حملق سامح في جاره .. تهلل لأنه حضر مبكراً بدون العمامة المتسخة، لقد أصبح أقل حجماً في ملابس الإحرام، حياه سامح بحرارة واضحة، لقد فرح برؤية ضوء الشيب برأسه، غمرته سعادة لم يحسها من قبل، كاد يحلق من الفرح .. أحس برغبة في الدعاء، تذكر أمه التي ودعت الدنيا منذ يومين، لقد كانت لهم كل شيء، لم ينس رائحة جلبابها الأسود العتيق وهو يقبل رأسها للمرة الأخيرة قبل أن تفارقهم دون مقدمات .. لقد أفنت عمرها في تربيتهم .. أحس سامح برغبته في البكاء:

- لم أكن أقدر عطاءها من أجلي أنا وأخوتي. مازالت حروفها الأخيرة ترسم في أذني خطوط المستقبل الغامض:

. سامح اهتم بأخوتك .. أنت أبوهم وأمهم.

ذكرهم أحد الركاب بالنية والتلبية فانسابت الكلمات بلا تكلف، وانساب معها سامح في عالم آخر، صمت ثم عاد للتلبية، مرت البقية الباقية من الطريق وما هي إلا سويعة حتى دلف مع الجميع صوب بيت الله الحرام أحس بالرهبة المتوقعة .. لاحت له المآذن العالية .. زادت قشعريرته، صمت كثيراً وكلما اقترب أكثر تضاءل ..

ذاب مع الزحام وجذبته أمواج الشوق كان لا يدقق النظر في شيء حتى يستمر سابحاً في أعماقه ..

لحظات وانتهى الزحام ، ساقته قدماه للصحن الكبير وجد نفسه وجها لوجه أمام البناء الرهيب، تسمرت قدماه، نسي كل الأفكار، إنها الكعبة بوشاحها الأسود البهي .. رآها تملأ عينيه .. تملأ وجدانه .. تحيط به .. تجذبه إليها، ثبت عينيه عليها ثم تقدم وتقدم .. تمتم داعياً بما أسعفته ذاكرته، ثم راح يسبح في عالمه مرة أخرى، طاف مقترباً منها سحرته بجلالها، رأى التاريخ يدور حولها، رآها ملتقى الأرض بالسماء ورباط الدنيا بالآخرة.

وفجأة صدح صوت عذب شق السكون، ردد معه أذان الفجر .. أسلم نفسه للصلاة حين كانت بعض طيور الحرم الوادعة تسرع باتجاه الكعبة، تحاول الطواف أيضاً.

مكة المكرمة: في 1418/5/27هـ

(8)
بتوقيع الجميع

لم تكن رسائل أخيه إليه مجرد أوراق مسودة بالأحبار والأخبار، لقد كانت له روحاً وحياةً تتواصل معها أنفاسه اللاهثة وراء لقمة العيش، تزيد في عمر غربته، وتشد عضده المكدود ليل نهار، لقد تغرب من أجلهم، هكذا أفهمهم حين وعدهم بالآمال الكبيرة حتى تناسوا معها آلام فراقه.

. غداً سيكون لنا بيت كبير يجمع هذه الغرف المبعثرة، سنصلح ما أفسد الدهر من هذه المزرعة العتيقة، وسنجعل لها سوراً يمنع اللصوص، وسنزينه بالورود .. سنعيد البئر أحسن ما كانت، سنبيع ونشتري كما يحلو لنا، كفانا تعاملاً مع الإقطاعيين والمتسلطين، سنعود أغنياء كما سمعنا من حكايات جدتي، وسنعطي جيراننا كما فعلوا.

وبين غفوات الصباح التي يحاول أن ينزع فيها جسده المرهق عن الفراش المهترئ دهش لرؤية رسالة أخرى قد انزلقت كالعادة من الفراغ السفلي لباب غرفته الذي تكاد الريح تقتلعه عندما تمارس بحرية تامة جولاتها الليلية المعهودة:

. ترى ما ذا يمكن أن يكون جديداً؟ .. بالأمس فقط تسلمت رسالة من أخي، كانت طويلة نوعاً ما، استرسل فيها مع أحلامه وتفاصيل أخبار العائلة، لم يترك شيئاً لم يكتبه, لقد ضاقت سطور الرسالة عن كلامه .. كان يدس أحياناً مطالبه وملاحظاته وتعليقاته الحالمة بين سطر وآخر، حاول فتح عينيه تأكد من وجودها مرة أخرى، وسرعان ما توجه إلى الصنبور الوحيد في ناحية الغرفة ثم فتحه عن آخره دون جدوى فقد تعود منه الشح حين يحتاجه، رضي بالقليل من الماء ليوقظ وجهه أو على الأقل عينيه، كي يستطيع القراءة، عاد للرسالة، وفي الطريق لمح شخصاً في الجزء الأكبر من المرآة المكسورة، كانت صورة شاحبة لوجهه جعلته يحملق متعجباً، نعم لقد كثرت الخطوط المتعرجة في خارطة وجهه ..

. لا بأس ..

رددها وهو يلاحظ التجاعيد المتداخلة حول عينيه لقد أصبح إلى حد كبير يشبه تلك الصورة الوحيدة المرسومة بالفحم لوالده.. ...شهق ..

. والدي .. يا الله..

لقد تذكر أن أخاه لم يكتب حرفاً واحداً عن أبيه في رسالة الأمس، وبسرعة حاول فض المظروف الذي كاد أن يتمزق بسبب ارتعاشة ملحوظة أصابت أنامله، انتقلت رجفتها لشفتيه وهو يقرأ بعض كلمات متناثرة بخط مرتبك:

. بعد السلام والتحية .. أخي العزيز .... مات أبونا فعد إلينا.. التوقيع : الجميع.

(9)
السجين

اصطدمت روحه بجدار الواقع الأليم بينما كان يحاول التحليق بها في العالم الفسيح .. فاستيقظ على أثرها فزعا مرتعشا..

استجمع ما تبقى من قوة في هيكله النحيل مستنداً على ركبتين خشبيتين لم يبق له منهما سوى أنين متقطع عند الثني والمد.. اهتز بشدة .. كاد أن يسقط على الأرض لكنه تماسك جاهدا. استرق نظرة للنافذة الضيقة العالية، مازالت الشجرة العتيقة ملتفة الأغصان تكون باخضرارها الباهت منظراً جميلاً يبدو كلوحة زيتية معلقة أعلى الجدار لكن الشجرة تلقى بظلالها الكثيفة على أرض الغرفة فتزيدها كآبة .. ما زالت الأوراق الجافة تتساقط واحدة تلو الأخرى .. تتحداه .. تدخل له من نافذته الضيقة العالية يعد معها خريف أيامه.

كان يتمنى لو توقفت الأوراق عن التحدي وتوقف هو عن العد .. مازالت النغمات الجافة المختنقة تخرج من حناجر الأغصان المبحوحة كلما حاول الهواء جاهداً مداعبتها.. لكن إيقاعها يشعل الوجدان حزناً وكمداً .. يتمتم معها . مرغما . بيتاً قديماً كان يحفظه عن الحرية.

تسلل شعاع برتقالي من شمس الضحى الدافئة لغرفته الرطبة محاولا بث الحياة فيها . استقبلته نظراته بالترحاب البارد.

كأنه يخاطبه : هل من جديد ؟

عاد ينظر للنافذة الضيقة العالية .. جحظت عيناه همهم متعجباً: يا إلهي ما هذا الذي يتحرك!! إنها .. إنها قطة صغيرة كانت عيناها اللامعتان تبرقان .. لونها البني يجذبه إليه.

لقد كان قبل اليوم يسمع صوتها دون أن يراها

تمتم: الحمد لله مازال في الدنيا حياة.

كانت تقاتل الأوراق تبحث عن لاشيء، تقفز تدور حول نفسها تداعب ذيلها الصغير تعبث محدثة جلبة تخيف سكان الشجرة من العصافير الصغيرة.

احتدت نظراته لها، لمعت عيناها، ودمعت عيناه، اختلطت نظراتها بالأسى والتعجب. خافت منه رأت فيه ما تخشاه .. بينما رأى فيها ما يعشقه ويتمناه رآها الحياة. ورأته الموت. رأى فيها الناس وهم يلهثون وراء السراب يحسبون أنهم في جد لكنهم يلعبون رآها نسمات الحرية التي حرمها خلف القضبان.

تمتم: ما أسعدك! اغرورقت عيناه بالدموع تلاشت الصور .. استحالت ضباباً.

سبح في الضباب بذاكرته رأى نفسه يحطم قيود الأخلاق .. يعربد لا يلوى على شيء، يجنى على نفسه يتعثر في طريق الغواية تتلقفه يد العدالة، يهرب منه أصدقاء الطريق

تتلاشى وعودهم بمساعدته يراهم يهربون بسيارته وهو يواجه المصير وحيداً . كسته اللعنات ثوب العار، ودع بعدها حياة الناس .

وابتلعته هذه الغرفة الرطبة ذات النافذة الضيقة العالية . تحجرت دموعه ، ثم انخرط في بكاء مرير كما لم يبك من قبل ، ينتحب .... تداخل نحيبه مع حفيف الأغصان المتزايد مع حركة الريح . خارت قواه . . تلقفته أرض الغرفة بذراعها القاسي . احتضنه الفراش المهترئ تلاشى إحساسه بالزمن ثم عاد للحياة من جديد .. حاول أن يرفع رأسه المتصدع لم يستطع حاول مرة أخرى . لاحت منه نظرة للنافذة الضيقة العالية .... يا الهي !! رآها خضراء تملؤها خضرة باهتة من نفس أوراق الشجرة العتيقة. ما زال يتمتم: .. الأمل في الله. انحدرت حبات دموع أخرى أشد حرارة كأنما خرجت من قلبه لا من عينه، تسلل شعاع برتقالي آخر لمعت فيه حبات الدموع فاستودعها أسرار الحياة وانصرف متسللا كما جاء ، انتفض كمن لدغته عقرب ارتعش كعصفور الربيع المبلل بالمطر . . توقدت عيناه حاول أن يكفكف دموعه، اعتدل بصعوبة بالغة أحس بجاذبية الأرض تزداد وتزداد ، قاومها ليستعد ويستقبل القبلة ، ثم رفع كفيه المرتعشتين عالياً، أخذ يبث حزنه لأبواب السماء. الرياض في 1418/5/27هـ

(10)
السقوط الألف

كالعادة تدثر رغم شدة الحر بفراء الكبرياء وانسل مسرعا كأن لم يره أحد إلى غرفة مكتبه الأنيق، متخذاً من احتجابه خلف أخشاب المكتب- قاتمة اللون- وعدسات نظارته السوداء علامة على أهميته..

.. لم يكن يدري أن أخشاب مكتبه وجدران غرفته ونظارته عندنا زجاج شفاف هش، وأننا أصبحنا نراه عرياناً حتى من الفراء!!

وكالعادة غلف كلماته المتسرعة بلفافات الأوامر العجلة.

خاطب الساعي: .. يا..

أجابه: نعم..

-: "هات الـ.. أنا مشغول جدا"

وأكملت نظراته الحائرة مفاهيمه الغامضة، وتنحت الكلمات وملأ الصمت المكان، أنه يحب الصمت .. يعشقه، لأنه يمسك بالقناع.

لم يجرؤ أحد على خدش الصمت سوى صرير القلم المتأفف من تلك القبضة الحديدية، يئن ويصرخ .. يقطع الحروف .. يئن ثانياً.. ثم يعود للكتابة..

تظاهر بالهدوء رغم ارتعاشة يده .. انتشى لاعتماده كل الأوراق .. لوى معصمه كالكوبرا المحنطة لمح ساعته الكبيرة بلحظ بصره .. لم يكن يهتم بمعرفة الوقت يقيناً ..استدار مسرعاً بزاوية منحرفة .. تقهقر الكرسي به عدة بوصات وكأنما يستعد لقذفه .. فكّر برهةً ثم هب واقفاً، تمطى .. انسل هارباً قبل أن يمضي وقت الصمت.

كنا في طريقه .. حانت منه لنا التفاتة سريعة، سابق غمضه فيها بصره حتى لا يسقط القناع وكالعادة لم يلق السلام واكتفى بهز رأسه مع حرف واحد اعتدنا سقوطه منه وسقوطه معه، هو حرف السين.

الرياض 1418/5/1هـ

(11)

أمي.. والبكاء الحقيقي

بعد أسبوع متخم بالمشكلات الجديدة والقديمة ، انتهزت فرصة الإجازة الأسبوعية لأقرأ في فقه لم يكن يخطر ببالي من قبل، قلت لنفسي " لابد مما لابد منه "

طالعت كتاباً وبحثت عن مسألة واستمعت مقاطع لبعض العلماء ،

رجعت خطوة للوراء ،

قرأت فتوى للإمام ابن تيمية عن الطلقات الثلاث... ولم أكملها ،

هربت من صمتي إلى ضوضاء الشارع ودون سابق إعداد اتجهت للمتنزه القريب من وسط المدينة، أحسست أن أحداً يتابعني ولأني لم أتمرس على الفكاك من مثل هذه المواقف من قبل فقد اشتدت خطواتي في حين لم أستطع الالتفات خلفي أحسست أن أمرا ما سيحدث لي لو أسرعت أكثر من ذلك ، أكاد أسمع أنفاس متابعي ، حاولت أن أطمئن نفسي ربما تكون هي ، وكيف تجرؤ على ذلك ، تقترب أكثر يظهر بعض ثيابها ، إنها هي ، هل أرجع ؟ أين أهرب منها ؟ لا مفر، تكاد خطواتها توحي للناظر أننا نسير معا ، تكاد تلتصق بي ، بدت خضرته معتمة رغم ضوء النهار الباهر وشمس الأصيل اللامعة أسرعت بصعود درجات المدخل الثلاث ، وهي تكاد تسبقني ، لم أشعر إلا وأنا في مواجهتها على إحدى الأرائك المستديرة تحت شجرة عتيقة ،

جلست وجلست

ويبدو أننا كنا نفكر في طريقة لبدء الكلام،

استرجعت بعض الذكريات السعيدة والبائسة ، فاجأتني ذاكرتي بموقف قالت لي فيه :

" أمك ..... ليتها كانت أمي، لقد وجدتها إنسانة رائعة يصعب أن أجد مثلها ...."

تلفت لأرى من حولي، كانت غيوم الصمت تلف المكان ، بكاء متقطع لا ينقصه الافتعال يرتفع قليلاً ليرفع عنا ستائر الصمت، ثم نعود من جديد،
أخذت نفساً عميقاً قلت : أمي ... كانت نبراتي تنقل إليها التأكيد والاعتزاز،
ردت بصرامة : أمك ..؟ وكأنها تتساءل،
لكنها أسرعت بالتعقيب : أمك ثم أمك ....ولو أن أحداً كان يستمع إلينا لظنها تعظني بحديث نبوي كريم ،
حاولت أن أبتلع كلماتها لم أتمكن فكرت في كثير من الردود ، لكنني لم أختر واحداً منها ،
جاهدت لكظم غيظي، استرخيت مسنداً ظهري للخلف قدر استطاعتي وضعت أصابعي متشابكة خلف رأسي نظرت إلى أعلى .
كانت أغصان الشجرة قريبة جداً من رأسي لامس بعضها شيئا من شعر رأسي تذكرت عندها يداً حانيةً طالما مسحته بحنان بالغ ،
عدت لوضعي الأول أخذت نفساً عميقاً
قلت :" إنها أمي ...."
عاجلتني بلا تفكير : قلت لك ألف مرة أنت لا تحس إلا بأمك أما أنا ف ...
وحولت بعد ذلك شفتيها لتبدوان كفوهة بركان وأخرجت زفيراً تعودت عليه.
تأملتها محاولاً قراءة ما وراء الزفير، تداخلت رموز الخطوط على وجهها وتشابكت التعبيرات ومع الغموض الشديد خرجت حبات دموع واضحة استطعت أن أعدمنها ثلاث حبات كبيرة، تخيلتها طلقات رصاص تحاول اختراق جسدي، تنهدت وعدت من جديد أفكر في فتوى الإمام ابن تيمية،
وفي نفس واحد أخرجت طلقات أخرى أضع بها نهاية للحرب الباردة، اتجهت بعدها للبيت من نفس الطريق ، عادت لمسابقتي مرة أخرى، اخترقنا ضجيج الشارع مرة أخرى، ضاع صوتها حين كانت تحاول أن تلقي إلي ببعض الكلمات، كانت تؤكد للجميع أننا نسير معاً، كنت في تفكير عميق استبق به الوقت، جففت قطرات العرق التي استقرت على أطراف حاجبي، لم استفق إلا حينما تعثرت قدماي بابنتي ذات السنوات الثلاث عندما أسرعت في استقبالي لكنها تخطتني وهي تنادي : أمي ... أمي
كانت تبكي ، وحين أنصت لها قليلاً .. سمعت لأول مرة بكاءً حقيقياً، لم استطع معه أن افتح فمي ،
فقط راجعتها وترحمت - في نفسي - على ابن تيمية .
* * *

(12)
سارق أم مسروق ؟

أخذ شهيقاً كبيرا وهو يرتدي قفازات حديثة لا يمكن معها تتبع البصمات ، شد الرحال لبيت جاره الوحيد الذي لم يسرقه، كان يراه كل يوم يجر قدميه القصيرتين مقلدا السلحفاة البرمائية حين تزحف على الشاطئ وتدعي أنها تسير، كان يعرف أن وجهته واحدة من اثنتين إما المسجد أو المقهى، إنه رجل لا يحتاج لمراقبة فمخطط حياته وحركاته مرسوم بهدوء يتحرك فيه بعناية وحذر لا يكاد يخطئه كأنما هو لعبة القطار السريع الذي فرغت بطارياته الجافة فكاد أن يتوقف لكنه لم يفعل،

حمل حقيبة فارغة ولف رأسه بلفافتين سميكتين أغلقتا نوافذه السبعة فلا نعرف كيف يسمع ولا كيف يرى ، فالجو بارد جدا والليلة حالكة السواد محق سوادها قمر الليالي وتنتظر الدنيا هلالا جديدا بأقرب وقت،

انسل بلا صوت ولا صورة، كان يحفظ مداخل بيت جاره ومخارجه ولا يحتاج لدليل ولا لوقت للتفكير في أي شيء، لكنه استطاع الدخول من المدخل الكبير بكل سهولة فالباب عتيق يمكن فتح قفله بمعظم مفاتيح الدنيا

هدوء رهيب لا يخشى منه، وظلام دامس يضطره للبحث عن مفتاح الضوء، تجرأ ففتحه، وليته ما فتحه ..تفاجأ بجاره العزيز يقف أمامه لا يكاد يظهر منه شيء سوى جبهة عريضة بها بصمة مميزة معروفة وتجاعيد ترسم خريطة العالم كله بطريقة مختلفة ، لم يكن يفصله عنه إلا بوصة أو بوصتين، ولبرهة فكر في إغلاق مفتاح الضوء مرة أخرى لكنه ضرب الأخماس في الأسداس فوجدها متساوية، ماذا عساه أن يفعل هذا المسكين ؟ لكن تفكيره طال لأكثر من برهة، كيف ومتى وصل هذا الرجل عندي؟ كاد أن يصرخ من شدة الدهشة فجاره الهرم كانه لم يره تحرك ببطء عائدا لفراشة في غرفة النوم الصغيرة مفتوحة الباب، قتل الفضول صاحبنا ليتابعه خطوة بخطوة في مشهد درامي ساخر نسي معه هدفه ومقصده، وصبر دهرا حتى دخل الرجل غرفته والتحف بطانيته ونام، لقد سمع غطيطه بعد أن اختفى داخل البطانية بثانيتين اثنتين، جال السارق ببصره مقتحما كل شبر يمكن رؤيته بالغرفة الضيقة فلم يجد شيئا رجع خطوتين للخلف أخذ يقلب كل ما يراه أحدث جلبة وقعت الأطباق وأدوات الصيد القديمة ومنضدة لا شيء فوقها ولا شيء تحتها، رفع رجله ليتعدى بعض الكراكيب ثم لم ينزلها تسمر مكانه واقفا على ساق واحدة ما هذا؟ سجادة الصلاة ؟ رباه ماذا أفعل؟ ترى هل يدوس بحذائه المتسخ على السجادة ؟ لا وألف لا ؟ إلا الصلاة لقد تربى على أن لا يمر من أمام أبيه عندما كان يصلي وكان يقبل المصحف والسجادة ويرفعهما بأعلى رف في البيت، كان أبي يصلي كل يوم، نعم كل يوم .. رحمك الله يا أبي، حاول أن يقفز بخطوة واسعة كان متدربا على القفز العالي وتخطي الحواجز، وبكل قوة فعلها أحس بفرحة غامرة أنه استطاع احترام السجادة وأنه لاتزال به قوة للقفز حتى ولو على ساق واحدة، ولكنه لسوء أو حسن حظه ركل بقدمه مطهرة الوضوء أحس ببرودة الماء تصل إلى مخ عظامه حين تبللت قدمه من مائها ، ارتعش قلبه وهو يقول كيف يكون هذا ماءً للوضوء؟، استطاع أن يدركها قبل أن تغرق بمائها المسكوب كل شيء، فكر في التأكد بنفسه من برودة الماء التي صدمته ، خلع القفاز الأيمن، توقف الزمن وتجمدت أصابعه حين لامست أنامله الماء البارد، في صفحة الماء ظهرت صورته متخفيا عن نفسه، الضوء لا يكفي لرؤية التفاصيل لم يخرج يده من الإناء الفضي اللامع النظيف أسرته زخارفه القديمة لكنه استطاع أن يقرأ كلمتين على الغطاء الذي تنحى جانبا ليظهر له جمال الماء وبرودته، أعاد قراءة الكلمتين مرتين أو ثلاثاً، قال في نفسه ربما لا يملك هذا العجوز أغلى من هذا الإناء إنه غنيمتي الليلة، لا تزال يده هناك نسيها وتذكر أمه حين كانت تتوضأ لصلاة الفجر كل يوم، نعم.. كل يوم، ترددت عينه بين المطهرة والسجادة المخملية السميكة ، فكر في ضمها للغنيمة، أخرج يده من الماء نسي شدة البرودة بمجرد ملامسة أهداب السجادة المحكمة النسيج، مر

بيده عليها مرة أو مرتين ثم غاب عن الوعي لم يدر أين هو إلا بعد دقائق، فتح عينيه ليجد قفازاته ملقاة عن يمينه ولفافات رأسه عن يساره ومعظم جسده يتقاطر ثلجا لا ماءً، كانت قدماه مصفوفتين في أدب جم على السجادة المخملية الخضراء، وهو متجه للقبلة، يحاول أن يقول كلمتين خفيفتين كانتا على ذلك الغطاء المزخرف القابع فوق المطهرة، كان ينظر لكفيه المرفوعتين للسماء ينتظر شيئا جميلاً لكنه لا يدري ما هو.

ديسمبر 2022م

(13)
الفنجال وهي

انتهت جلبة التلاميذ حين استجابوا لدعوة جرس المدرسة الذي أعلن عن فسحة منتصف النهار، لقد كانت دقاته تسرّع دقات قلوبهم وتزيد تدفق الأدرينالين عندهم فيودعون معلمهم بصيحات صاخبة تسعدهم وتسعده، أما هو فيبدأ في تعديل جلسته انتظارا لمرور الحدث اليومي السعيد

كان ينتظرها حين تأتي من الطرف الآخر للمدرسة كانت تخلع حذاءها المعتاد وتلبس آخر صيحة من أحذية الكعب العالي المنتهي بدبوس معدني تحمل فنجال القهوة متوسط الحجم، كانت تتعمد أن ترتب خطواتها وتهندم رائحة القهوة ثم تتحرك صوب الهدف اليومي الذي أضناه التفكير بها وقتلها الشغف به

استمع لرنات الكعب العالي قادمة إليه كان يشبهها بوصف قديم سمعه من الموسيقار عمار الشريعي حين كان يشرح تاريخ الموسيقى بأنها خطوات الـ " فوكس تروت" إيقاع معتاد يزيد حتى يتوقف فجأة أمام الباب المفتوح لحجرة الصف وينتظر دقات الأصابع الممتلئة الحنون، يعرف دقاتها الثلاث على الباب كأنها دقات قلبه هو على بابها الموصد إنها تدق بظاهر عقلة أصبعها الأوسط الذي يعرفه جيدا، وفي الغالب تكون دقات القهوة المحوجة قد سبقت لتدق أرنبة أنفه قبلها فيتأكد أنها هي

منذ سنتين فقط كان يحلم بفنجال من يدها يشربه ثم يقرأ الفاتحة، حين دخل بيتهم ليطرده أخوها شر طردة، حتى الماء يومها لم يشربه، كان يحلم بفنجال كبير يشربه في وقت طويل يتحدث معه

عن نفسه وعمله وبيته الريفي المرتب كانت تراوده الأحلام أنها ستناوله الفنجال بنفسها ويستلمه من يدها الباردة في ذلك الصيف الحار البئيس الذي لا ينساه ولن ينساه، فقط يذكر أنه قال لأخيها بكل أدب : أتشرف بالتقدم لأختكم ال..... ولم يسمع بعدها شيئا ولم يحس بنفسه إلا وهو يبحث عن حذائه الجديد ناعم الملمس ليلبسه على عجل لا يذكر كيف رُفض؟ ولماذا رُفض ؟ ولم يستمع لكلمة من صاحبة الشأن إنه لا يذكر التفاصيل بل لا يريد أن يذكرها، لقد دفن كل ذلك في قعر ذاكرته وأخفاه بتراب السنين ومشاغل العمل

طال انتظاره ولم يسمع شيئا

سبقت كالعادة رائحة القهوة...، هناك شيء غير طبيعي قهوة من غير هيل أم قهوة من غيرها هي؟ كان يتساءل

لقد كانت تسترق السمع له بين الفينة والفينة وهو يحكي مسترسلا في قصص جميلة يزينها بحنجرته الذهبية التي تطرب لها وتنتشي وإن لم تفهم شيئا من دروس التاريخ فهي لم تدخل مدرسة أبدا إلا حين توسط لها أخوها عند كبار القوم فعينوها في هذه المدرسة النائية،

كان يستمع للطرقات الثلاث متتالية كل يوم في نفس الموعد ثم يستمع لدقات قلبه تردد صداها ثم يجيب :

-مرحباً.

قالها مؤكدا على التنوين لتتحول نونه لنغمة كروانية كانت تعمل فيها عمل السحر فيتسع معها ثغرها الباسم فتخرج جملة معتادة تتلقفها أذنه وينتظرها كل يوم وفي نفس الموعد :

-القهوة يا أستاذ

لم تقل شيئا، ولم يقل شيئا، سمع قرقعة الفنجال المحمول فوق طبقه المعهود في نفس مكانه على مكتبه

كانت كل يوم تحادثه بجملة أو جملتين فما بالها اليوم؟ خيم الصمت على المكان أراد أن يقول لها مثل كل يوم:

-شكرا يا دكتورة، لتقول له مثل كل يوم: أنا لست دكتورة أنا هنا عاملة ومسؤولة عن الشاي والقهوة بس

كان يكمل حديثه في نفسه دون أن تعرف: لكن قهوتك كيمياء الروح تداوي الجروح وتعطر الأثير وتفرح القلب الكسير ورائحتها الفريدة ترد الروح الشريدة الطريدة ومن يد ما نعدمها كانت هي لا تستمع لهذه الكلمات ليس لأنه يقولها في نفسه بل لأنه لم يقلها.

كان يرتب مكتبه كل يوم بنفس الموعد ليفسح لها وللفنجال مكانا قبل حضورها، ثم هو يظل جالسا ليستمع لهاتين الجملتين عن قرب فهي قصيرة قوية مثل كلماتها، كان يعرف طولها ووزنها ومسافة خطوتها من حساب صوت الإيقاع المحفوظ للكعب العالي، كان يحلم باصطدام يده المتلقفة للفنجال بأحد هذه الخمسة أصابع التي كان يعرف يقينا أنها بلا خاتم ولا دبلة ولا حتى محبس، وكان ينجح في افتعال ذلك الحادث العرضي أحيانا وأحيانا تسبقه بفيمتو ثانية فيشكرها سائلا عن أخيها، وكانت هي لا تجرؤ على أن تقول شيئا إلا:

-الحمد لله.. بعد إذنك يا أستاذ

كان يودع خطواتها ويعدُّها وتكاد أنفاسه أن تنتهي حين تنتهي، كان يحسب الخطوات فمرة سبعة ومرة عشرة على حسب استعجالها وتأنيها ونشاطها وكسلها وصحتها ومرضها، كان يطمئن على أحوالها من خطواتها،

منذ أن عرف أنها تعمل هنا وهو يبذل الغالي والرخيص هدايا في صورة رشاوي ورشاوي في صورة هدايا لمسؤول النقل في إدارة التعليم ويتحمل جرأته وألفاظه الثقيلة حين يردد: ناس غاوية تعب، ثم يتابع سيل اتهاماته القميئة: تبا لكم معشر المعلمين تقتلون أنفسكم على درس خصوص ومجموعة

تقوية، كان لا يجيب عن سؤاله المعهود لماذا تود الانتقال لهذه المدرسة النائية؟ لكنه لم ييأس حتى انتقل هنا كان يتعمد أن لا يلبس نظارة سوداء حتى لا يقولون له كما في المدرسة القديمة: أهلا يا شيخ طه، كان هندامه دوما مسار الهمس واللمس والهمز واللمز من الجميع، لم يرافقه للمدرسة النائية الجديدة سوى العصا البيضاء التي لا تفارقه ليلا أو نهارا فهو يتأكد بلمساتها السحرية من كل باب فتخبره أمفتوح أم مغلق ويعد بها درجات السلالم الأربعة عند مدخل الصفوف الأولى التي يدرس بها هروباً من صفاقة الكبار وشقاوة اليافعين،

انتهت الفسحة، لم يتبق من الفنجال إلا رشفة واحدة، كان يستمع لصوت غريب مع ابتلاع كل رشفة من القهوة كأنها تشق في حلقه أخاديد عميقة بعمق السنين المرة التي مرت عليه

-مستحيل أن تكون قهوتها أو أن تكون هي

قالها بصوت مسموع، وأكمل في نفسه :لا الرائحة رائحتها ولا الفنجال فنجالها ولا الخطوات إيقاعها، حاصرته الهواجس فانتفض حاملا الفنجال والعصا وأخلى الفصل للهجوم الكاسح لتلاميذه العائدين بصخبهم الجميل، لحسن حظه لم يصطدم به الصغار أو ربما اصطدموا به دون أن ينتبه، كان يحس بصدمة أخرى أكبر قادمة إليه، حضر التلاميذ يرافقهم مدرس الحصة التالية أما هو فقد خرج قاصداً الطرف الآخر من المدرسة حيث منابع القهوة ونهايات خطوات الكعب العالي، ذهب كالعادة يسلم الفنجال لأنه -كما يقولون- عهدة لديها لابد أن يسلمه هناك فيطمئن عليه وعليها،

أحست بلمسات أصابع عصاته البيضاء تتحسس الباب دون قرع ولا جلبة،

-شكرا يا استاذ

قالتها بصوت غريب لم يستطع أن يفهم ما الغريب في صوتها لكن قلبه بدأ في ضخ الدم مرة أخرى، ولم يفسر الحشرجة الحزينة والنشاز المتعمد في صوت جملتها المعتادة، اقترب منها ليسلم الفنجال ويسلم عليها

مد يده فمدت يدها تحجرت جملتان على فمه، كان يود أن يسألها عن سبب تغيرها اليوم ولكنه لم يستطع، ارتعش جسده حرفيا حين طرقت سمعه رنة صغيرة سمعها تخرج من المسافة الزمكانية بين الفنجال وأحد أصابعها المتينة فاخترقت قلبه كرصاصة طائشة من قناص قاتل، صوت لم يسمعه من قبل، لم يصدق أذنيه فأرسل أنامله لتتأكد من الخبر فعادت مرتعشة حزينة نعم إنها تلبس اليوم دبلة ومحبس .

رواندا في : 7-1-2023م

(14)
مجرد حلم جاثومي

قصة طويلة... (عفوا قصيرة)

استيقظ مخنوقا بحروف الأنا الغليظة التي سدت منافسه حين كان يلقي خطابه الأخير على الأسماك ظل يهذي لمدة طويلة كان ذلك في حلم جاثوم طوله ألف عام الا عشرة سنوات كان يقهقه في خطابه أكثر مما يتكلم كان يلمح الأسماك تتململ في كل سنة مرة أو مرتين لكنه يكمل الخطاب القهقاوي كانت تحين منه التفاتة خبيثة للأسماك يتأكد من وجودهم في نفس أماكنهم منذ اصطادهم بشبكته المهترأة بينما كان يرى غرابا يزاوله ذهابا وإيابا ينتظره ان يتنفس لينعق نعقة محشورة في حلقه لم يجد مساحة لإخراجها ... ظل

يتكلم ويقهقه حتى لمح السمك يتصاغر ويتضاءل ألا واحدة كانت تكبر وتكبر وتكبر حتى كادت ان تبتلع البحر لم يكن يصدق ما يراه كان يعرف إنه في حلم سرعان ما سيفيق منه بعد ساعة أو بعد يوم أو بعض يوم ، فيطمئن قلبه، في بعض جمله الطويلة منه نسي البحر والأسماك والخطاب الممل حيث التفت فوجد خلفه مرآة طويلة عريضة تحسس شاربه بأصبع متقزم، شاربه يخرج عن حدود المرآه كاد ينسى الحروف الغليظة لكلمة الأنا التي تحجرت واستعرضت واستطالت في حنجرته ولولا حاجته للتنفس ما توقف، شهق شهقة كادت من هولها تخرج حروف الأنا من قلبه وفمه على شكل جذوع نخل خاوية منقعرة، تذكر كلمات الأسماك الأكثر من خطابه الطويل السمج الممل القهقهاوي كانت الأسماك تصفه بأقزع الأوصاف دون ان تتكلم كانت تخرج ألفاظها على شكل فقاعات هوائية مائية ملونة تملؤها الأسماك بالسباب بحروف مبعثرة كان يحاول جمعها تأكد من بعضها بنفسه : قاف مقرفة وزاي زاوية وميم ملومة مذمومة وعين واسعة وراء عريضة وصاد أكبر من شبكة الصياد العتيقة لكنه وجد أخيرا فقاعات كبيرة مكتوب فيها كلمة مكررة . "ارحل" وكان يرد حين يقرأها بصعوبة من فوق جبل الظلام .. ما أنا براحل ، ما أنا براحل ، ردده مرارا ، أخذ نفسا خبيثا ثم استعد للشهقة التالية.

الجزائر : 23-4-23

(15)

الجوهرة / اللؤلؤة..

بحث عنها منذ زمن طويل, ملأ الدروب سـيرا, ورسـم التراب أقداماً, ولكنه لم يعثر عليها، كان يبحث عنها بين قواقع البحر على شـاطئ الحياة, حينما غابت أمه عن ناظريه, فأسرع في البحث علّه يجدهما معاً، مات أبوه، وعادت أمه من مشـوارها متعبة, فواصـل السـير نحو البحث، ولم يجدها، ترك الشطآن وجاب المدن والمزارع ولم يلقها، لكنه واصل البحث نحو المجهول .

كلّ ولم يكلّ شـوقه ليدها الحانية وأذنها المرهفة وعينيها الشـفوقتين، كبر وكبر اهتمام الناس به يريدون منه ولا يريدونه، واصـل البحث عن الحب وعنها، كان يتمثل كثيراً بعض آية محفوظة "عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً"

الناس ينتظرونه في المطار ويسألونه ويعجبون بكلماته لأنه يصرخ نيابة عنهم، ولم يجد منهم من يحبّه، حتى بعد أن سمعها من بعضهم وهم يقسمون له بالله العظيم، تزوج الصغار وأنجبوا وهو يبحث عنها، وصل التلاميذ لحياة الوظيفة والمرتّبات ولم يجدها، دفن خواطره في دفاتره, ولم يسمح لمخلوق أن يراها حتى يجدها؛ لتكون أول من يفك رموزها، ولم ير من يسـتحقها غيرها، كانوا كما توقع يمزحون ويتضاحكون عندما تقع بعض سطوره فريسة بينهم، رآهم يتهامسون: هل توجد جواهر في الصحاري؟ وهل رأيتم لؤلؤة في حقل البرسيم؟!

وقال له أحدهم ذات مرة:

- هل ولد الجبل محاراً وقواقع؟ وكان يمزق نفســـه بدلاً من أوراقه؛ حينما يقرؤونها بســـخريتهم الفجة، ويعض أصابع الندم؛ كيف اطلعوا على أوراقه قبلها؟ واصل السير حتى قيل له:

- الطريق مغلقة!

استدار عائداً ولم يعبأ بأنفاسه المتلاحقة، لوح بيده لأول حافلة، كانت قسوتها تزيد ألم الطريق، والذي بدا كأن لم تمهده إلا قدماه أثناء البحث عنها.

لم يترك فرصـة للنافذة لتسـتريح مازال يتابع البحث عنها، ولم يعثر في كل السـهول والمرتفعات حتى على طيف ظلها كما يقال في القصص التي تصفحها طيلة فترة الشباب،

ولكنه بعد أزمات منتصـــف الطريق الرهيبة، وفجأة.. دون مقدمات وعند أحد المنعطفات رآها، أين كانت كل هذا العمر؟ ولم يصـدق نفسـه؛ لا لأنه لم يعرفها؛ ولا لأنها تأخرت عليه جداً؛ بل لأنه حين لمحها تاهت منه الدروب وتعثرت خطاه وتحولت رسـومات أقدامه على الرمال حفريات أثرية من عصر القدماء.

لم يســـتطع الوصـــول إليها وكانت أقرب ما يكون إليه؛ اندفع بنفســـه لدفتره المهترئ ليعيش مع كلمات أثيرة كانت ترن في مسمعه منذ زمن بعيد "يبقى اسمك يا حبيبي..."

رأى أوراق دفتره وكأنها قلوب بيضـاء اتخذت شـكلا مخروطياً فاحتار أن يسـجل اسـمها في قلب صفحاته أم في صفحات قلبه، لكنه أصر على تسجيل ذلك، ليثبت للعالم أنه وجدها وليثبت لنفسه أنه قادر على الصـبر لمدة عمر كامل، وليتحدى اليأس الذي حاصره خمس عشرة سـنة, ثم حاول قتله في مثلها، أمسك قلمه وسجل:

-هذان سطران في ديوان الحياة، أو على الأقل قصة صديقين أو...أخوين، ربما، توقف كثيراً، لكنه أصر على أن يكتب وفقط، كتب أنه وجدها، وكتب أيضا أنه - بعد أن وجدها . لم يجد نفسه!

الرياض : 13-3-2008

10 الخميس 2008/3/13

العرب الثقافي

اللؤلؤة
قصة قصيرة

د. سعد جبر - السعودية

بحث عنها منذ زمن طويل، ملأ الدروب سيرا، ورسم التراب أقداماً، ولكنه لم يعثر عليها، كان يبحث عنها بين قواقع البحر على شاطئ الحياة، حينما غابت أمه عن ناظريه، فأسرع في البحث عله يجدهما معاً، مات أبوه، وعادت أمه من مشوارها متعبة، فواصل السير نحو البحث، ولم يجدها، ترك الشطآن وجاب المدن والمزارع ولم يلقها، لكنه واصل البحث نحو المجهول.

كل ولم يكلّ شوقه ليدها الحانية وأذنها المرهفة وعينيها الشفوقتين، كبر وكبر اهتمام الناس به يريدون منه ولا يريدونه، واصل البحث عن الحب وعنها، كان يتمثل كثيرا بعض آية محفوظة «عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً». الناس ينتظرونه في المطار ويسألونه ويعجبون بكلماته لأنه يصرخ نيابة عنهم، ولم يجد منهم من يحبه، حتى بعد أن سمعها من بعضهم وهم يقسمون له بالله العظيم، تزوج الصغار وأنجبوا وهو يبحث عنها، وصل التلاميذ لحياة الوظيفة والمرتبات ولم يجدها، دفن خواطره في دفاتره، ولم يسمح لمخلوق أن يراها حتى يجدها؛ لتكون أول من يفك رموزها، ولم ير من يستحقها غيرها، كانوا كما توقع يمزحون ويتضاحكون عندما تقع بعض سطوره فريسة بينهم، رآهم يتهامسون: هل توجد جواهر في الصحاري؟ وهل رأيتم لؤلؤة في حقل البرسيم؟

وقال له أحدهم ذات مرة: هل ولد الجبل محاراً وقواقع؟ وكان يمزق نفسه بدلا من أوراقه؛ حينما يقرؤونها بسخريتهم الفجة، ويعض أصابع الندم؛ كيف اطلعوا على أوراقه قبلها؟ واصل السير حتى قيل له: الطريق مغلقة!

استدار عائداً ولم يعبأ بأنفاسه المتلاحقة، لوح بيده لأول حافلة، كانت قسوتها تزيد ألم الطريق، والذي بدا كأن لم تمهده إلا قدماه أثناء البحث عنها. لم يترك فرصة للنافذة لتستريح مازال يتابع البحث عنها، ولم يعثر في كل السهول والمرتفعات حتى على طيف ظلها كما يقال في القصص التي تصفحها طيلة فترة الشباب،

ولكنه بعد أزمات منتصف الطريق الرهيبة، وفجأة.. دون مقدمات وعند أحد المنعطفات رآها، أين كانت كل هذا العمر؟ ولم يصدق نفسه؛ لا لأنه لم يعرفها؛ ولا لأنها تأخرت عليه جدا؛ بل لأنه حين لمحها تاهت منه الدروب وتعثرت خطاه وتحولت رسومات أقدامه على الرمال حفريات أثرية من عصر القدماء.

لم يستطع الوصول إليها وكانت أقرب ما يكون إليه؛ اندفع بنفسه لدفتره المهترئ ليعيش مع كلمات أثيرة كانت ترن في مسمعه منذ زمن بعيد «يبقى اسمك يا حبيبي...».

رأى أوراق دفتره وكأنها قلوب بيضاء اتخذت شكلا مخروطياً فاحتار أيسجل اسمها في قلب صفحاته أم في صفحات قلبه، لكنه أصر على تسجيل ذلك، ليثبت للعالم أنه وجدها وليثبت لنفسه أنه قادر على الصبر لمدة عمر كامل، وليتحدى اليأس الذي حاصره خمس عشرة سنة، ثم حاول قتله في مثلها، أمسك قلمه وسجل: هذان سطران في ديوان الحياة، أو على الأقل قصة صديقين أو...أخوين، ربما، توقف كثيرا، لكنه أصر على أن يكتب وفقط كتب أنه وجدها، وكتب أيضا أنه بعد أن وجدها عاد يبحث عن نفسه!

ومضات قصصية قصيرة جدا

(1)

الأسوَد..

احتار في لون قميصه؛ ارتدى حزنه وخرج.

(2)

تكبُّر ..

ظل متدثرا صيفا وشتاء بفراء غليظ نرجسي طاووسي .. فقتله

(3)

ظل رجل

كسرته ... فالتهبت ناصيتها من حرارة الحياة ... وذبلت .

(4)

بصيرة

تيقن من كل الحقائق حين أهدته الوهم وغادرت

ختاماً

ولنا لقـاء ..
عزيزي القارئ .. عزيزتي القارئة ..
لمحتم بعض أشعة بيتنا، وفاح عبير أصوات الترحيب بكم ، وغدا تحلون ضيوفاً علينا في دواوين أخر، وها نحن قد أعددنا لكم في قلوبنا متكأً ملكياً على بعض مآدب الأدب لتطالعوا فيه ديوان " قوافل " وغيره الكثير والكثير ... وننتظركم .. فانتظرونا

سعد جبر
الجزائر 2025